

الحلقة (٢٩)

تفسير الآيتين (٢٠١، ٢٠٢) قال تعالى:

{فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ} (٢٠٠) وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} (٢٠١) أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ {

هاتين الآيتين في بيان الصنف الآخر من الناس، ومن الناس من يطلب في الدنيا حسنة والآخرة حسنة وهم أهل الإيمان، ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

وهنا نشير إلى أن العلماء ذكروا أن الدعاء على مراتب فقالوا أفضل الدعاء ما جاء في القرآن الكريم ومنه هذا الدعاء {رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} أيضا في بداية سورة آل عمران {رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا} إلى غير ذلك من هذه الأدعية، وأفضل الدعاء ما جاء في القرآن.

وبعد ذلك ما جاء في السنة فإنه صلى الله عليه وسلم أعرف الخلق بربه وأشدهم له خشية وأسرعهم له دمعة بأبي هو وأمي عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وهو الذي أوتي جوامع الكلم، المرتبة الثانية ما ثبت عن الرسول صلى الله عليه وسلم في السنة.

بعد ذلك ما روي عن الصحابة والسلف من جوامع الأدعية خاصة أن الصحابة أعمق هذه الأمة علما وأدقها فهما وأشدها معرفة بالله بعد أنبيائه ورسله، ثم بعد ذلك ما يفتح الله به على العبد.

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول هذا الدعاء {رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} في الطواف بين الركن اليماني والحجر الأسود هذا هو السنة أن يقال هذا الدعاء، أما بقية الطواف فلم يرد فيه شيء، بعض الناس يأخذ كتب ويقرأ دعاء الشوط الأول كذا وكذا، ودعاء الشوط الثاني كذا وكذا، طبعا هذا كلام غير صحيح، نحن لا نتعبد الله إلا بما جاء في القرآن وفي السنة، فورد في الركن اليماني والحجر الأسود هذا الدعاء فقط، أما في غيرها ما ورد شيء من ذلك، والإنسان في الطواف يقرأ القرآن ويذكر الله ويدعو بما يفتح الله به عليه دون التقيد بمثل هذه التقيدات التي ما أنزل الله بها من سلطان وليس عليها دليل.

أمر آخر، الصحابة رضي الله عنهم وسلف هذه الأمة كانوا يلتزمون بهذه الأدعية، وكانوا يحرصون عليها ولا يفرطون فيها، وأذكر في هذا المقام أنه جاء في ترجمة أنس رضي الله عنه أنه كان إذا انتهى من المجلس دعا ربه {رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}، فكان بعضهم قال ادعُ الله لنا يعني أعطنا أدعية أخرى، فغضب رضي الله عنه وقال: أتريدون أن أشق لكم

الدعاء، من أوتي في الدنيا حسنة وأوتي في الآخرة حسنة ووقي عذاب النار حصل كل خير، فليس هناك داعي إلى أن أشقق لكم الدعاء، والعلماء ذكروا أن من الاعتداء في الدعاء تشقيقه. وأذكر أنه جاء في ترجمة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه سمع ابن له يدعو ويقول: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَأَسْأَلُكَ حُورَهَا وَأَسْأَلُكَ الْقَصْرَ الْأَبْيَضَ، فغضب وقال يا بني عليك بجوامع الدعاء إذا سألت الله الجنة فسوف يكرمك الله، ولا شك أنه لا نعيم أكثر من النظر إلى الله، نسأله من فضله والنظر إلى وجهه، المهم أن الحاج يجب عليه أن يدعو الله بهذا الدعاء العظيم على وجه الخصوص في نهاية حجه، بدلا من التفاخر بالآباء والأحساب والأنساب هذه التي لا تسمن ولا تغني من جوع كما قال عليه الصلاة والسلام: (من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه) والحديث في صحيح مسلم، النسب لا يدخل الجنة ولا ينجي من النار، إذا بطأ العمل وما تقدمه وما نجاك وما هذا لا ينفعك في شيء، وصدق الشاعر:

لم تغني أبي لهب قرابته، وبلال عبدا جاوز الشهب
أبو لهب عم النبي كان أبيض أحمر مليء الجسم ممتلئ صحة وعافية، ولكنه في النار ولم تق له قرابته، وبلال عبد كان يباع ويشترى، اشتراه أبو بكر وأعتقه، وسمع النبي خشخشة وبعض الرواية دفن عليه في الجنة، فهو الآن مشهود له بالجنة وهو أحد مؤذني الرسول سأله الرسول صلى الله عليه وسلم، فقال: "يا رسول الله ما كنت أتوضأ وضوءاً إلا صليت به ركعتين"، المهم أن هذا الدعاء العظيم يحرص عليه الحاج وغير الحاج.

ندخل الآن في المفردات {رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً} اختلف بالمراد بـ"الحسنة" على سبعة أقوال:
(١) المرأة الصالحة قاله علي رضي الله عنه. (٢) أنها العبادة روي عن الحسن

البصري.

(٣) أنها العلم والعبادة، وهما قرينان لا ينفكان عن بعضهما البعض.

(٤) أنه المال قاله أبو وائل علقمة بن قيس والسدي وابن زيد.

(٥) أنه العافية أيضا فهي نعمة من الله تعالى والصحة نعمة، وأذكر أن أحدهم دُعي إلى وليمة فيها من أصناف الطعام والمأكولات، وكان هذا من العلماء، فصاحب الوليمة يريد أن يفتخر ويريد أن يمدحه من حضر الوليمة ما أطيب هذا الطعام يعني يريد أن يستحث الناس على المدح والثناء، فالتفت إلى هذا العالم فقال: يا فلان ما أطيب هذا الطعام، فقال: هذا العالم الموفق: يا فلان طيبته العافية، نعم لو لم تكن متعافيا لم تستطع أن تأكله، فلله الحمد على نعمة العافية هذا القول قاله قتادة رحمه الله.

(٦) أنه الرزق الواسع وهذا يدخل في المال، وهذا فضل من الله عز وجل أن يغني الله عبده عن الناس فلا يذل نفسه ولا يهين كرامته، هذا فضل من الله أن يستغني العبد، اللَّهُمَّ أغني بجودك

وفضلك عن سواك، اللَّهُمَّ اجعلني أغنى خلقك بك وأفقر عبادك إليك، ما أجمل الفقر إلى الله، وما أعظم النذل إلى الله، فإن هذا يزيد العبد رفعة وعزا عند الله تبارك وتعالى، ولكن عند البشر تزداد مهانة وذلة، نسأل الله العافية هذا قول مقاتل.

(٧) أنها النعمة عموم النعم قاله ابن قتيبة.

على العموم الأقوال كلها صحيحة وهذا ما يسميه العلماء باختلاف التنوع، وهذا أغلب ما يروى عن الصحابة والتابعين من التفسير يعرف بأنه اختلاف تنوع، ولعلنا نذكر في هذا الاختلافين فيكون الطلاب عندهم إمام بهذا الاختلاف اختلاف تنوع واختلاف تضاد، وقد ذكر العلماء بأن أكثر الاختلاف بين الصحابة والتابعين أنه اختلاف تنوع، أن يعبر أحدهم عن الكلمة بعبارة تختلف عن عبارة صاحبه، ولكن المؤدى واحد، يعني لا تضاد ولا تنافر بينهما، إما أن يذكروا أمثلة مثل ما هو عليه الآن على الحسنة معظمها أمثلة، وإما ما توصل إليه هذا الشخص فهذا يسمى اختلاف تنوع.

{وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ} وهذا فيه **ثلاثة أقوال**:

(١) أنها الحور العين قاله علي رضي الله عنه.

(٢) الجنة قاله الحسن و السدي ومقاتل، وأعظم نعيم الجنة النظر إلى وجه سبحانه وتعالى.

(٣) العفو والمعافة من الله على عبده، وهذا لاشك أنها حسنة.

وهذه الأقوال الثلاثة كلها صحيحة فهذه نعمة كبيرة والنبي صلى الله عليه وسلم، لما سأله عائشة رضي الله عنها: أرايت لو علمت أي ليلة هي ليلة القدر، ما أقول فيها؟ فأرشدتها الرسول صلى الله عليه وسلم إلى دعاء عظيم ينبغي أن لا نتركه، بل يجب أن لا يغيب عن ألسنتنا: (وهو اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُو تَحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي)، ثلاثا، فالعبد يسأل الله حسنة الدنيا وحسنة الآخرة.

{وَقَنَا عَذَابَ النَّارِ} وهذه هي الدعوة الثالثة أن يقي الله العبد عذاب النار والله عز وجل يقول {فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ}، فو الله هذا هو الفوز، الفوز أن يزحزح العبد عن النار وأن يدخل الجنة، ولكن أعظم هذا الفوز هو النظر إلى وجه الله تبارك وتعالى، وقد روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال لو أني وطأت بإحدى قدمي الجنة لم أطمئن حتى أطأ بقدمي الثانية، فمن وقى عذاب النار فقد وقى الشر ومن دخل الجنة فقد دخل النعيم والسرور والحبور **فهذه ثلاثة دعوات**:

(١) ربنا آتينا في الدنيا حسنة (٢) وفي الآخرة حسنة (٣) وقنا عذاب النار قال تبارك وتعالى بعد ذلك: {أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ} ما جزاء أولئك؟ أولئك اسم إشارة يرجع إلى هؤلاء الذين دعوا الله بهذه الدعوات الثلاث، قال الزجاج معناه دعاؤهم مستجاب لأن كسبهم هنا هو الدعاء وهذه الآية متعلقة بما قبلها.

وهذا هو الظاهر أولئك لهم نصيب مما كسبوا الكسب هنا هو العمل هم عملوا، هل لهم نصيب على هذا العمل؟ نعم لهم نصيب والكسب هو العمل، ما هو العمل الذي عملوه؟ وما جزاء هذا العمل؟ إنه

دعائهم الله تبارك وتعالى بهذا الدعاء العظيم "ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار"، أولئك لهم نصيب مما كسبوا".

لكن هناك قول آخر قيل أن الآية هذه نزلت في قصة أخرى لا ترتبط هنا بالآيات، وهذا السبب رواه الضحاك عن ابن عباس (أن رجل قال: يا رسول الله مات أبي ولم يحج أفأحج عنه؟ قال: لو كان على أبيك دين قضيته أما كان ذلك يجزئ عنه، قال: نعم، قال: فدين الله أحق أن يقضى، قال: فهل لي من أجر) فنزلت هذه الآية، ورواية الضحاك عن ابن عباس فيها كلام لأهل العلم، لكن الحديث قصته جاءت في روايات أخرى في كتب الحديث، على العموم الحج عن الغير له أجر، وفضل الله واسع، لكن الآية في الدعاء، فلهم جزاء على دعائهم، وجزاؤهم أن الله يستجيب لدعائهم.

ختام هذه الآية يقول الله عز وجل: {وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ} اختلف في المراد هنا على خمسة

أقوال:

(١) أنه قلته وسرعته، قاله ابن عباس رضي الله عنه أي أنه حساب سريع ليس مثل حساب البشر، فيه أخذ ورد وطويل، لأن الله عز وجل لا يعجزه شيء يعلم أعمال عباده ومحصياها لهم {إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ} وأعمال العباد في كتاب "لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها"، والله عز وجل قد بين لنا كما في الحدث القدسي يقول الله عز وجل: (يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه).

(٢) أنه قرب مجيئه، الإنسان يحاسب {إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} قد يعجل للإنسان عقوبة أو جزاء حسابه في الدنيا، أو قد يؤخر إلى الآخرة، المهم أنه قرب مجيئه.

(٣) أنه لما علم ما للمحاسب وما عليه قبل حسابه كان سريع الحساب بذلك، الله جل وعلا يعلم أعمال العبد، وماذا سوف يكون قبل، وماذا سوف يكون بعد، وحالته الآن الله، لا يخفى عليه شيء، فهو سريع الحساب.

(٤) أي أن الله سريع المجازة والمحاسبة.

(٥) أن الله جل وعلا لا يحتاج إلى فكر وروية عند الحساب كالعاجزين، لا شك أن الإنسان إذا جاء لحساب الدينار أو الدرهم يعيد في الورقة والقلم، وبعض الأحيان يأتي بالآلة الحاسبة، ويعطي فلان يدقق في المحاسبة، ولكن الله عز وجل أعظم وأكبر يعرف ذنوب العباد وهو محصياها عليهم {قَمَنُ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} الله جل وعلا لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد، **والحقيقة هذه الأقوال متقاربة وبعضها يدخل في بعض.**

ينبغي لطالب العلم أن يهتم في شرح التفسير خاصة مقدمة ابن تيمية توجد في المجلد الثالث عشر من مجموع الفتاوى، وطبعت طبعة مستقلة، وقامت عليها الشروح ومن أنفسها شرح العلامة الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين "شرح مقدمة ابن تيمية في أصول التفسير" ولها شرح من قبل د. مساعد

الطيار، وأيضاً عليها تعليقات من وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف ودار الإرشاد، معالي الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، وهناك شروح كثيرة، وهي مقدمة نفيسة جداً